الفصل الخامس عشر

تسديد الديون

انتهت الاحتفالات التي جرت في الحج، وقد أتم النبي ﷺ كافة الشعائر وأراد العودة إلى المدينة، فانطلق الحجاج الذين قدموا معه، ووصلوا أخيراً إلى المدينة وعادت الحياة إلى مجراها، وقد عرف الكثير من المسلمين و تعلموا مبادئ الإسلام والقرآن، فضلاً عن عناصر الممارسات الدينية بقواعدها وشروطها، وقد حُصِّلت الزكاة وفق المعايير التي حددها حديثاً الوحي وممارسة النبي[1]. وهكذا نُظِّمَت جميع شعائر أركان الإسلام الخمسة، بما في ذلك الحج، الذي تم القيام به للتو، وتلقت الجماعة الإسلامية المعلومات اللازمة لتعيش الإسلام في الحياة اليومية وتواجه مسائل جديدة تنشأ في المستقبل.

سأل النبي ﷺ معاذ بن جبل رضي الله عنه، الذي عيّنه قاضياً في بيئته الجديدة في اليمن: «بمَ تحكم؟» فأجاب معاذ: «بكتاب الله» ثم سأله النبي ﷺ: «فإن لم تجد في كتاب الله؟» فقال معاذ: «سوف أحكم بسنة رسول الله». وسأل محمد ﷺ ثانية: «فإن لم تجد في سنة رسول الله؟» فأجاب معاذ بثقة: «لن أدخر جهداً في أن أجتهد». رضي النبي ﷺ عن هذه الإجابة وقال: «الحمد لله الذي هدى رسول رسول الله لما يرضي الله ورسوله»[2].

لقد تضمن هذا التدرج في إجابات معاذ بن جبل ﷺ جوهر تعاليم النبي وقدم للجماعة الإسلامية سبل اتباعه والإخلاص له عبر العصور: كتاب الله ـ القرآن ـ وأحاديث النبي ﷺ (التي يشار إليها في مجموعها بكلمة «السنة» ـ هما المرجعان الرئيسان، وعند مواجهة وضع جديد، فإن على المسؤولين عن تلك التعاليم ممارسة ذكائهم النقدي والمنطق وإبداعهم الشرعي لإيجاد إجابات جديدة تحافظ على المبادئ الإسلامية وتناسب الوضع الجديد، أما أسس العقيدة والعبادة فهي لا تخضع للتغير، لا هي ولا المبادئ الأساسية للأخلاق، لكن تنفيذ تلك المبادئ الأخلاقية والاستجابة للأوضاع الجديدة التي كانت المصادر القرآنية، والسنة غامضة أو صامتة بشأنها كانت تحتاج إلى إجابات متكيفة مع الظروف الخاصة، وقد فهم صحابة النبي ﷺ ذلك، فقد أعطاهم المعرفة والثقة اللازمين للمضي قدماً والانتباه للعالم وتقلباته، وهم واثقون بأنه أصبح لديهم السبل الروحية والفكرية ليظلوا استناداً إليها مخلصين لرسالة خالقهم.

حملة وطبيعة

بعد بضعة أشهر من عودة النبي ﷺ إلى المدينة، في السنة الحادية عشرة، للهجرة، قرر النبي ﷺ إرسال حملة إلى الشمال، قرب مؤتة وفلسطين، حيث قتل جعفر وعبد الله وزيد قبل بضع سنوات. وقد دهش الجميع عندما ولى القيادة لأسامة الشاب، ابن زيد ـ رضي الله عنهما ـ الذي لم يكن عمره يزيد عن العشرين، مع أن هذا الجيش البالغ عدد أفراده ثلاثة آلاف جندي كان فيه عمر ﷺ وغيره من كبار الصحابة[3]. هذا الاختيار أثار الكثير من النقد، لكن النبي ﷺ تصدى له سريعاً ووضع

نهايــة لجميع الحجج حــين قال: «لئن قلتــم في إمارة أسامــة لقد قلتم في إمــارة أبيه من قبله وإنه لخليق بالإمارة مثلما كان أبوه خليقاً بها قبله»[4].

في الماضي، اعترضــ بعض المسلمين على اختيار زيد لأنهم كانوا لا يزالون يعتبرونه عبداً، رغم أنه حُرِّر، والآن اعترض بعضهم على ابنه، ربما بسبب أبيــه، ولكن علــى الأغلب بسبب صغر سنه، فمن خــلال اختيار النبي ﷺ لأسامة فإنه قد أفهمهم بأنه لا المنبت الاجتماعي ولا عمر الإنسان يحولان دون ممارستــه لسلطتــه وقوتــه إذا كانت تتوافــر فيه المؤهــلات الروحية والفكرية والأخلاقية، فلا بد من أن يتذرع المرء بالحصافة وحسن الإدراك عبر إتاحة المساواة الحقيقية للفرص لأكثر الأفراد فقراً في المجتمع والثقة بالشباب بحيث يتمكن الجميع من التعبير عن مهاراتهم ومواهبهم، وعلى صعيد أعم، فإن هذا كان درساً رائعاً في التواضع، موجهاً للصحابة الأكبر سنــاً، فقد كان عليهم خوض غمار الجهاد الأكبر المتمثل بإطاعة رجل كان مــن الممكن أن يكــون بعمر أبنائهم، ويتذكرون بذلــك أن عمرهم محدود، كمــا هو الحال بالنسبة لأي إنسان، فبهــذا الاختيار لأسامة، علمهم النبي ﷺ أن الزمن يعمل على تآكل طاقة الإنسان وأنه يجب على المرء أن يتحلى بحكمة كافية تجعله يتعلم كيف يتنحى ويفوض بالسلطة لمن هم أصغر منه سناً ويتمتعون بقوة كافية تمكنهم من الإبداع والبناء.

وهكــذا بعــد أن أوصــى النبي ﷺ أسامــة، طلب منــه أن ينطلق على الفــور، غــير أن مرض النبي ﷺ المفاجــئ أدى إلى تأخــير الرحيل وظل الجيشــ ينتظر قرب المدينة طيلــة الأيام التي كان وضــع النبي ﷺ فيها موضــع ترقب، ولكن بعد بضعة أسابيــع، وبناء على رغبة النبي ﷺ، فقد

طلب أبو بكر ﷺ من أسامة الانطلاق في الحملة، وقد ذكره بوصايا النبي ﷺ بشأن أخلاق الحرب، حيث إن النبي ﷺ كان دائماً يؤكد على المبادئ التي يتعين على المسلمين مراعاتها في تعاملهم مع الأعداء، أمره أبو بكر[5] «لا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، لا تخونوا ولا تغلوا ولاتغدروا ولا تمثلوا ولا تقطعوا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكله، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له»[6]. هذه التعاليم كانت مبادئ أساسية وتم إبلاغها إلى أسامة في ضوء ما كان النبي ﷺ قد قاله في مختلف المناسبات بشأن الحرب واحترام الطبيعة أو كيفية معاملة الحيوانات، ففي بضع جمل أوجز أبو بكر ﷺ جوهر تعاليم الرسول ﷺ في هذا الصدد.

فقبل بضع سنوات، بعد نهاية معركة حُنين، كان النبي ﷺ قد مر بجماعة من الناس واقفين حول امرأة ملقاة على الأرض وسمع أن خالد ابن الوليد ﷺ (الذي كان قد دخل حديثاً في الإسلام) قد قتلها، فغضب غضباً شديداً وطلب إبلاغ خالد بأن: «رسول الله يحرّم قتل الأطفال والنساء والرقيق»[7]. كما أنه أنحى عليه باللائمة حين قتل رجالاً كانوا قد استسلموا بعد إحدى المعارك، ففي كلتا الحالتين كانت الرسالة هي ذاتها: يجب قتال جنود الأعداء فقط، والإبقاء على جميع الذين لم يشتركوا مباشرة في الصراع المسلح أو لم يعودوا يستطيعون التسبب بأي أذى، لقد أعلن النبي ﷺ بوضوح قبل إرسال حملة مؤتة: «لا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الأطفال ولا أصحاب الصوامع»[8]. فلم تكن الحرب مرغوبة أبداً،

ولكـن عندمـا كان المسلمون ملزمين بخوضهـا دفاعاً عـن أنفسهم أو لأن بقاءهـم كان في خطر، فإنـه كان عليهم الاقتصـار بصراحة على ما كان لازماً من أجل مقاتلة قوات العدو المسلحين أو المصممين على القتال، فإذا جنحوا للسلم أو استسلموا، يجب وقف الحرب حسب أوامر القرآن: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[9].

لقد رأينا أن النبي ﷺ استثنى في ذلك حين قطع أشجار النخل خلال حصـار بني النضير هـذا الاستثناء، الـذي ورد في القـرآن، أثبت قاعدة احترام الطبيعة، لاسيما في وقت الحرب، إن الخلق مليء بالآيات التي تدل علـى كرم الخالق، لذا فهـو مكان مقدس: فاحترامه هـو بمنزلة الصدقة أو الدعـاء، فحمايـة النخل والأشجـار المثمرة والنباتـات الأخرى في وقت الحـرب هو نتيجـة لتعاليم أعم صـادرة عن النبي ﷺ لجميـع المسلمين، في أحـد الأيام مر النبي ﷺ بسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، الذي كان يتوضأ، فقـال لـه النبـي ﷺ: «لم هذا الإسـراف، يا سعـد؟»، فسألـه سعد: «هل يوجـد إسراف حتى عند الوضوء؟»، فأجاب النبي ﷺ: «نعم، حتى عندما تستخدم ماء نهر جار»[10]. فالماء عنصر أساس في جميع التعاليم المتعلقة بالممارسـات الشعائريـة، إذ إنه يمثـل تطهير الجسد والقلـب من الأشياء الخارجيـة المادية، والأشيـاء الروحية الداخلية[11]. لكـن النبي ﷺ علّم سعـداً وصحابته الآخريـن بألا يعتبروا أبـداً المـاء، أو أي عنصراً آخر في الطبيعـة، مجرد وسيلـة لتزكيتهم الروحية، بل علـى العكس، فإن احترام الطبيعـة والاعتـدال في استخدامهـا هو في حـد ذاته، يُعد عمـلاً وارتقاء روحياً، وهدفاً في سعيهم لمرضاة الخالق.

يـدل إصرار النبي ﷺ على عـدم الإسراف في أي مورد طبيعي، «حتى لو كنت على نهرٍ جارٍ» يدل على أنه وضع احترام الطبيعة على مستوى مبدأ أساس يجب أن ينظم السلوك مهما كان عليه الوضع، وبصرف النظر عن العواقـب، وهذا ليس علم تبيّؤ (إيكولوجيا) منبعثاً من توقع حدوث كوارث (تنشـأ عن أعمال البشر) بل هو نوع مـن «إيكولوجيا المصدر» التي تختبر علاقـة الناس بالطبيعـة على أساس صخرة أخلاقيـة مقترنة بفهم أعمق الدروس الروحية[12]. يجب أن تستنـد علاقة المؤمن بالطبيعة إلى التأمل والاحترام. قال النبي ﷺ مرة: «إذا قامت الساعة وفي يدي أحدكم فسيلة فليغرسهـا»[13]. وهكذا، فإن ضمير المؤمن يجـب أن يستند حتى النهاية، إلى هذه العلاقة الحميمة مع الطبيعة، إلى الحد الذي يجب أن تكون عليه آخر أعماله مقترنة بتجديد الحياة ودوراتها.

وهـذا الدرس نفسـه كان يتجلى طيلـة حيـاة النبي ﷺ فيمـا يتعلق بالحيوانـات، لقد رأينـا أنه عندمـا كان متوجهاً إلى مكة مـع جيشه فإنه طلـب نقل جراء ملقـاة على الطريـق لحمايتها، إن كـون النبي ﷺ أصر علـى الرفـق بالحيوانات حتـى في حالة الحـرب هو -مرة أخـرى- نتيجة مباشـرة لدروسه الأساسية في هذا الصدد، كان محمد ﷺ يحب القطط بشـكل خاص، لكنه بشكل أعم كان دائماً يشعر الصحابة بضرورة احترام جميـع أنواع الحيوانات، مرة أخبرهم بالقصة التالية: «كان رجل يسير في الطريـق في حر شديد، فرأى بئـراً ونزل فيه ليطفئ عطشه، وعندما صعد مـن البئر، رأى كلبـاً يلهث من العطش فقال لنفسـه: «هذا الكلب عطشان مثلـي». فعاد ونزل في البئـر ثانية وملأ حذاءه بالماء وصعـد من البئر وقد أمسكـه بين أسنانه وأعطـاه إلى الكلب ليشرب فكافأه الله على ذلك وغفر

لـه خطاياه»، ثم سُئل النبي: «يا رسـول الله، أفنؤجر لرفقنا بالحيوانات؟» وأجاب النبي ﷺ: «في كل كبدٍ رطبٍ صدقة»[14]. وفي مناسبة أخرى، قال: «دخلـت امـرأة النار في هـرة حبستها لا هي أطعمتهـا ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض»[15]. مـن خلال هذه الأحاديث ومن خلال هذه القدوة أن الرفق بالحيوانات جزء من التعاليم الإسلامية الأساسية، وقد استفاد من كل مناسبة للتأكيد على ذلك البعد.

وهكـذا فيما يتعلق بالتضحيـة بالحيوانات من أجل لحمهـا فإن النبي ﷺ لم يقتصـر علـى أمـر المسلمين بمراعاة هـذه الشعيرة وقـول: «بسم الله، والله أكـبر»، والتي تمكن مـن التضحية بالحيوان بغية أكله، فقد كان يأمرهم بمعاملة الحيوان بأحسن طريقة وتفادي أي تسبب بألم لا ضرورة لـه للحيوان، في أحد الأيام طـرح أحد الأشخاص حيوانه أرضاً وأخذ يسن سكّينـه أمـام الحيـوان، فانبرى إليه النبـي ﷺ وقال: «أتريـد أن تذبحه مرتين، لَم لم تقم بسن سكينك قبل أن تطرحه أرضاً؟»[16].

كان محمـد ﷺ يطلـب من النـاس أن يتقنوا عملهـم، فبالنسبة لمن يضحي بالحيوانات كان هذا يتجلى بوضوح في احترام حياتهم وكرامتهم ككائنات حية وألا يقتلوا إلا عند الضرورة وتجنيبهم أي ألم غير لازم[17]. إن التكبيرة التي تقترن بالتضحية يجب أن تفهم بأنها الجملة التي تؤكد في واقع الأمر أن الحيوان كان يعامل أثناء حياته وفق تعاليم الله ورسوله، وقـد هدد النبي: «من قتل عصفـوراً أو حيواناً أكبر دون احترام حقه في الوجود سيحاسبه الله عليه يو القيامة»[18]. وهكذا فقد علم محمد ﷺ وجوب احـترام حق الحيوان وعـدم التسبب له بـالألم، ووجوب إطعامه

مـا يحتاج إليـه، وأن يعامل معاملة حسنة وأن هـذا ليس موضع مساومة لا بـل هو جزء من واجبات البشر ويجـب أن يفهم بأنه واحد من شروط ارتقائهم الروحي.

المرض

بعد بضعة أسابيع من شهر رمضان من السنة الحادية عشرة للهجرة، ذهـب النبي ﷺ إلى أُحُد حيث جرت المعركة الثانية بين المسلمين وقريش وأدى صـلاة الـوداع على الرجـال الذين قتلوا هناك، ثم عـاد إلى مسجد المدينـة وجلس على المنبر وخاطب المؤمنين[19]. قال أولاً: «إني بين أيديكم فرط وأنا عليكم شهيد». ثم نصحهم واختتم كلامه بالقول: «لست أخشى عليكـم أن تشركـوا ولكنـي أخشى عليكم الدنيـا أن تنافسوهـا»[20]. هذه الكلمـات أوضحت بأنه كان يشعـر بأن عليه أن يستعد لمغادرة هذه الحياة، وفي الوقـت نفسـه أعرب عـن خوفه من مستقبـل جماعتـه الروحية: قال بـأن الإيمان لن يفارقهم، لكن العالم وأوهامه مـن شأنه أن يأسرهم ومن سـوء الحظ أن الاثنين كلاهما سيوجدان عندهم، كان النبي ﷺ في واقع الأمر يعبر عن خـوف بدا وأنه نبوءة: فسوف يظلون يؤدون الصلاة لكنهم سينقسمون في سعيهم إلى الأمجاد والثروة والسلطة، أو ولاءاتهم المختلفة، الأمر الذي سيجعلهم ينسون الأخوة التي كانت توحدهم.

في الليلة التـي تلت ذلك اليوم، ذهب النبي ﷺ إلى البقيع، في المدينة، ليسلم على سكانه وكان يمزج دعواته بهذه الكلمات: «أنتم السابقون ونحن اللاحقون». وفي طريق عودته شعر النبي ﷺ بألم شديد في رأسه لم يغادره طيلة أسبوعين تقريباً وجعله يلازم الفراش في الأيام الأخيرة من حياته[21].

في أول الأمـر ظل يصلي بالناس الصلوات الخمس، رغم ألم الرأس وحُمى كانـت تسبـب له ألماً شديداً، ومـع مرور الأيام ازداد المرضـ سوءاً واضطر النبـي ﷺ إلى الرقـود أوقاتـا أطول فأطول، كان في ذلـك الوقت يقيم مع زوجته ميمونة ـ رضي الله عنها ـ (حيث كانت زوجاته يتناوبن في استقباله وظل يسأل عن الزوجة التي سيزورها في اليوم التالي، ثم اليوم الذي بعده. وقـد فهمت ميمونة أنه كان يريد الذهاب إلى بيت عائشة ـ رضي الله عنها ـ فتحدثت إلى بقية الزوجات عن ذلك فقررن انتقال النبي ﷺ على الفور إلى حجرتهـا، وكان قـد أصبح يشعر بضعف شديد بحيـث اضطر العباس وعلي ـ رضي الله عنهما ـ لمساعدته للوصول إلى هناك.

كان قـد مضى عليه بضعة أيام عنـد عائشة ـ رضي الله عنها ـ عندما ازدادت شدة الحمى، فجأة أصبح رأسه يؤلمه بشدة أكبر وفقد وعيه، وعندما عـاد إلى وعيـه، طلب أن يصب على وجهه سبع قـرب من الماء، وبعد بضع ساعات شعر بتحسن قليل وقرر أن يذهب إلى المسجد وقد ربط حول رأسه رباطاً، فجلس على المنبر وخاطب الصحابة الحاضرين وتحدث إليهم عن القبـور وأصـر على أنه يجب عليهـم ألا يحولوا قبره إلى مـكان عبادة: «لا تتخـذوا قـبري مسجداً»[22]. لقـد كان رسول الله ﷺ، لكنه ظـل إنساناً؛ وكان يعـرف مدى حـب صحابته له فحذرهـم من ارتـكاب الأخطاء التي ارتكبهـا الذين كانوا قبلهم والذين نسبوا إلى أنبيائهم ومرشديهم صفات خارقة بلغت بهم حد العبادة[23]. فالله وحده هو الجدير بالعبادة.

ولإتمـام هذه التذكرة ببشريته، نهض النبـي ﷺ وسأل إن كان مديناً لأصحابـه بـأي شيء، فوقف رجل وذكّر النبي ﷺ بـأن له عليه دين بمبلغ

ثلاثة دراهم: فأمر النبي ﷺ بدفع المبلغ له على الفور، كان النبي ﷺ، استناداً إلى أوامر الوحي، لا يصلي على قبر أحد من المؤمنين إلا إذا تم الوفاء بكافة ديونه، وكان يعرف إنه حتى إذا ضحى الإنسان بحياته في سبيل الله، فإن الدين يظل عيناً عليه لا يغفره الله له. فيجب أن يموت دون أن يكون لأحد عليه أي دين وأن لا يحمل معه أي ذنب لم يغفر ولا جرح لم يتعافى ولا أمانة لم تؤدى ولا رسالة لم تسمع.

وجلس النبي ﷺ على المنبر ثانية وقال: «إن الله خيّر عبداً بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله»[24]. عند سماع أبي بكر رضي الله عنه لهذه الكلمات انفجر باكياً حيث كان أول من فهم، من عميق حبه للنبي ﷺ أن محمداً ﷺ كان يتكلم عن نفسه وعن رحيله الوشيك. فهوّن النبي ﷺ من روعه، وبينما كان يواصل خطابه للمصلين، خاطب مباشرة قلب أبي بكر رضي الله عنه معترفاً على رؤوس الأشهاد، بما هو مدين به من محبته أبي بكر رضي الله عنه العميقة والقوية: «إن أمن الناس علي في صحبته وماله هو أبوبكر. ولو كنت متخذاً خليلاً من أمتي لاتخذت أبابكر ولكن أخوة الإسلام ومودته»[25]. كان تواصلهما علنياً، لكنه كان في الواقع فريداً وشخصياً وسرياً، فعبرت دموع أبي بكر رضي الله عنه عن حبه وسددت الدين. لقد أحب، وفي تلك اللحظة بالذات، فهم.

الرحيل

عاد النبي ﷺ وأوى إلى حجرة عائشة ــ رضي الله عنها ـ وقال للصحابة الذين زاروه لاحقاً بأنه يرغب في أن يتم تدوين آخر توصياته. فأعرب عمر رضي الله عنه عن تحفظاته بسبب حالة النبي ﷺ، بينما أيد آخرون

الفكـرة ورفعوا أصواتهم عند النبي ﷺ الذي طلب منهم الانسحاب لأنه لم يكـن يستطيـع سماعهم وهـم يتجادلون، وعلى أي حـال لم يُلَبّ طلبه، مع أنـه أعرب عن بضع توصيـات أخرى شفوياً بشـأن الإيمان والممارسة وصيانـة الكعبـة، ثم أراد الذهـاب إلى المسجد، لكن ألمـه كان من الشدة عندمـا حاول النهوض حتى أنه أغمـي عليه، وبعد صحوته حاول النهوض لكنـه أغمي عليه ثانية، وبعد صحوته الثانية أعاد السؤال ذاته وقيل له إن المسلمين لا يزالون ينتظرونه، فقال لعائشة ـ رضي الله عنها ـ بأن يصلي الناس وأن يؤمهم أبو بكر رضي الله عنه.

وطلـب منها ذلـك في الأيام اللاحقة أيضاً، ولكـن كان كلما فعل ذلك، كانـت عائشـة ـــ رضـي الله عنها ـ تطلـب بأن يعفـي والدها مـن أن يؤم المصلـين، لقد أكدت أنه رقيق الإحساس وأنه كان يبكي عند تلاوة القرآن، وفي كل مـرة كانـت عائشة ـ رضي الله عنها ـــ تعترض فيها كانت تحصل على الجواب القاطع ذاته: ليؤم أبو بكر رضي الله عنه الصلاة، كان وراء رقة إحساس أبي بكر رضي الله عنه ودموعه سر، وظل النبي ﷺ جازماً في اختياره، وبعد يومين، بعـد أن شعر بقليـل من التحسن تمكن من الذهـاب إلى المسجد فيما كان المسلمون يصلون صلاة الظهر خلف أبي بكر رضي الله عنه. وقد أراد أبو بكر رضي الله عنه أن يتراجـع ويترك المـكان للنبي ﷺ، لكن النبي ﷺ منعـه من ذلك واكتفى بالجلوس إلى يسـاره، وأمّ النبي ﷺ بقية الصـلاة فيما كان أبو بكر رضي الله عنه يردد، بصوت مرتفع، العبارات التي تقترن بمختلف حركات الصلاة.

كانت هذه آخر مرة يظهر فيها النبي ﷺ في المسجد، وفي اليوم التالي عمـل على أن يُوزَّع كل ما يملكه حتى آخر درهم فضلاً عن درعه واستمر

في تقديم النصائح، وكرر مراراً وتكراراً بوجوب حسن معاملة الرقيق والفقراء ورقيق الحال، وفي صباح اليوم الثاني، وهو يوم اثنين، وعند صلاة الظهر، رفع النبي ﷺ ستارة في حجرة عائشة ـ رضي الله عنها ـ مما مكنه من مشاهدة المسلمين في المسجد، وشوهدت ابتسامة على وجهه، وقد دُهش المسلمون من هذه البادرة وظنوا أن النبي ﷺ سينضم إليهم، لكن الستارة نزلت ولم يعد النبي ﷺ إلى الظهور. وفي الساعات التي أعقبت ذلك، جاءت ابنته فاطمة ـ رضي الله عنها ـ لزيارته وتفوهت بعبارة تنم عن شدة حزنها بشأن شدة ألم النبي ﷺ. هنا قال لها النبي ﷺ: «بعد هذا اليوم سوف ينتهي ألم أبيك». ثم همس في أذنها، كما رأينا سابقاً، بأنها سوف تلحق به عما قريب وهذا ما جعلها تضحك من خلال دموعها. وأخذ الألم يشتد بالنبي ﷺ أكثر فأكثر، ولم يعد النبي ﷺ قادراً على الكلام.

ثم جاءت عائشة ـ رضي الله عنها ـ إلى جوار النبي ﷺ وقربته منها ووضعت رأسه على صدرها وأخذت تمر بيدها عليه لتخفيف ألمه. ودخل عبد الرحمن رضي الله عنه، أخو عائشة ـ رضي الله عنها ـ إلى الغرفة وبيده سواك وهو مثل فرشاة الأسنان وقد كان يستخدمه المسلمون لتنظيف أسنانهم. فنظر إليه النبي ﷺ بطريقة فهمت منها عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنه يريده، فقامت بتليينه بفمها وأعطته للنبي ﷺ، الذي قام بفرك أسنانه بقوة مدهشة نظراً لضعفه العام، وهكذا فإن الاهتمام بالنواحي الصحية قد صاحب رسول الله حتى آخر لحظات حياته، لأنه كان يعرف مدى أهمية المحافظة على لياقة الجسم والصحة، ففي حياة الإنسان، إن

لذلك الجسم حقوقاً على الكائن والضمير الذي من الله عليه به، فعلى الإنسان أن يلبي احتياجاته للرفق واللطف والاهتمام الجنسي، كما يجب عليه المحافظة على لياقته وإحاطته بالشروط الصحية السليمة وحمايته بعناية من كل ما يمكن أن يؤثر على توازنه أو يسبب له المرض، إن الأوضاع والمتطلبات الصحية والاستجابة لاحتياجات الجسم هما بعدان وشرطان للرقي الروحي، وهكذا، ففي اللحظات الأخيرة من حياة النبي ﷺ، حصل على الرقة وفرك أسنانه بقوة؛ مع أن آثار هذا الاهتمام الأخير بالجسد لن يراها أحد على الأرض، فإن الله كان يعلم النية الكامنة وراء تلك الحركة. كان النبي ﷺ قد صرح مرة بأن أحد الأسئلة التي سيسأل عنها المؤمنون يوم القيامة هو عما فعلوه بأجسامهم[27]. وخلافاً لجميع أوهام الممتلكات الشخصية، فإن الجسد هو من حيث الأساس أمانة مؤقتة في عنق كل كائن بشري، وهنا، أيضاً، لا بد للمرء من أن يفي بدينه قبل المغادرة.

أغلق النبي ﷺ عينيه، كانت عائشة ـ رضي الله عنها ـ تضمه إليها وسمعته يهمس: «الفردوس، مع الرفيق الأعلى...» ثم تلا نهاية الآية: ﴿ٱلَّذِينَ أَنعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾[28]. ثم كرر ثلاث مرات: «مع الرفيق الأعلى!»[29]، وفجأة سقطت ذراعه وثقل رأسه وفهمت عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ قد لفظ أنفاسه الأخيرة، لقد رحل إلى ربه ومؤدبه وخليله الذي استدعاه إليه ليجد أخيراً السلام الأسمى، الذي يتجاوز عالم البشر الذين أرسل إليهم لتبليغ خاتمة الرسالات من أرحم الراحمين، ومنذ ذلك اليوم، لم تتوقف جماعة المؤمنين الروحية، في جميع أنحاء العالم وعبر العصور، عن الصلاة والسلام على النبي وعن

التلاوة بـكل قلوبهم ومحبتهـم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾[30].

الفراغ

انتشر نبأ وفاة النبي ﷺ في أنحاء المدينة وسبّب حزناً لا مثيل له، فقد ظهر علـى الوجوه الفزع والدموع والنشيج وفي بعض الأحيان كان الصراخ يعـبر عن شدة الألم، وقد كان النبي ﷺ قد قال بأنه لا بد من التعبير عن الحزن، ولكن دون مبالغة ودون هستيريا وبضبط نفس ووقار، وخيم صمت ثقيل تقطعه التنهدات والنشيج قرب منزل النبي ﷺ. وفجأة قطع عمر ابن الخطـاب رضي الله عنه الصمت وصاح بقوة، كما رأينا، بأن النبي ﷺ لم يمت وأنه سيعود، مثلما عاد موسى عليه السلام، بعد أربعين يوماً، لقد بلغ حبه درجة كبيرة وكان شعوره بالفراغ شديد العمق حيث إنه لم يستطع أن يتصور ما سيكون عليه المستقبل في غياب الرجل الذي كان يرشدهم ويصاحبهم، والذي كان حبه واهتمامـه موضع آيات قرآنية ذاتها: ﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾[31]. لقـد سيطرت عاطفة عمـر رضي الله عنه على كيانه، هنا، وصـل أبوبكر رضي الله عنه إلى بيـت النبي ﷺ وجلس بقـرب فراشه ورفع الغطاء الـذي وضع فوق جسم النبـي ﷺ ووجهه، أخذت الدموع تنهمر من عينيه وتسيـل على وجهـه عندما أدرك أنه غادرهم، فخـرج وحاول إسكات عمر رضي الله عنه الذي كان لا يزال في حالة صدمة عاطفية ويرفض أن يهدئ من روعه، فابتعد عنه أبو بكر رضي الله عنه وخاطـب المتجمهرين وتفوه بتلك الكلمات الممتلئة

حكمة وقد أوردناها في المقدمة، والتي تضمنت خلاصة جوهر العقيدة الإسلامية: «من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت»[32]. ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[33]. وعندما سمع عمر هذه الآية انهار وقد اعترف لاحقاً أنه كان كأنه سمع هذه الآية للمرة الأولى، بالرغم من أنها نزلت منذ وقت طويل، لقد أدرك -مثل بقية المسلمين- أن النبي ﷺ قد رحل ولن يعود وأنه غادرهم وأن الفراغ الذي ساد فجأة يجب أن يملأه منذ ذلك الوقت فصاعداً إيمانهم بالواحد الأحد، الذي «لا يموت». فعليهم أن يدعوه ليساعدهم على أن يجدوا في أنفسهم القوة والصبر والمثابرة التي يحتاجون إليها لمواصلة العيش من دون رسول الله ﷺ، ولكن دائماً في ضوء قدوته.

رغم قوة شخصية عمر رضي الله عنه، فإنه فقد السيطرة على نفسه مدة من الوقت، فقد سيطر عليه شعوره سيطرة قوية كشفت عن هشاشة لم تكن حتى ذلك الوقت موضع شك، وجعلته يتصرف مثل الطفل الذي يرفض حكم الله والواقع والحياة، وعلى النقيض من ذلك، فقد تلقى أبو بكر رضي الله عنه، الذي كان عادة رقيق الشعور يبكي بغزارة وعمق عند قراءة القرآن، تلقى نبأ وفاة النبي ﷺ بحزن عميق ولكن بهدوء خارق وقوة داخلية لم يكن يتصورها أحد، في هذه اللحظة بالذات، انعكس دور الرجلين وتبين أنه قدم لنا، من خلال رحيله، درساً نهائياً، من الأعماق الروحانية المضيئة، وهو أن رقة الإحساس يمكن أن تنسج درجة من القوة لا تتزحزح، ومن

جهة أخـرى، فقد تصبح، أقـوى الشخصيات، إذا نسيـت نفسها للحظة، واحـدة شديدة التأثر وهشة، إن طريق الحكمة والقوة بالله يؤدي لا محالة إلى إدراكنـا لنقاط ضعفنا، وهي لن تتركنا أبداً والذي هو أقرب إلينا من حبل الوريد يوصينا بأن نتقبلها ـ بثقة، مثلما فعل أبو بكر ﷺ، وبعمق، كما فعل عمر ﷺ، ولكن دائماً بتواضع.

opeikandl.com